[١٣] مقدمة
Introduction

هناك، مع الاقتصاد المعولم، وتقنيات الاتصال الجديدة، ضمير كوني في طور التشكل. لم يعد الطموح الكوني أمراً مجرداً، بل حسيّاً لأن هدفه الأرض والحضارة الجديدة التي تُرْسى دعائمها في نطاقها. إن للاقتصاد المعولم، وهو اقتصاد تنافسي، تبعات؛ نتائج كثيرة لعل من أهمها أن هناك علاقات عولمية جديدة في طور التشكل بين الإنسان وبين عناصر الكون الأساسية التي هي الماء والتراب والهواء والنار، إضافة إلى الطاقة بكل أشكالها. والحال أن الطمع في هذه العناصر الأربعة يزداد، وتصبح في كل يوم أكثر ندرة. إن المعارف وحوارات الأفكار تفلت في آن معاً من مواطنها الأصلية، وهي من الآن فصاعداً متاحة في جهات الكوكب الأربع بفضل الأنترنت، والترجمات المتعددة، والمقارنات التي لا تنتهي، وبفضل انتقال البشر، حتى إن التنوع يطل برأسه في كل ركن من أركان الأرض. إن الإنسان الذي يبسط سجادة صلاة في مكتبة بوذية في لاسا[1]

(١) لاسا هي العاصمة التقليدية للتبت، وعاصمة منطقة التبت المتمتعة بالحكم الذاتي من جمهورية الصين الشعبية. تقع لاسا عند سفح جبل جيفيل. والمدينة هي موطن لحوالي ٢٥٥,٠٠٠ نسمة، وعلى ارتفاع نحو ٣٦٥٠ متر (١١٩٧٥ قدم)، هي واحدة من أعلى المدن في العالم. لاسا تعني حرفيا "مكان الآلهة"، على الرغم من أن اللغة للتبتة القديمة والنقوش وثائق تثبت أن المكان الذي كان يسمى راسا، وهو ما يعني "مكان العنزة"، وحتى أوائل القرن السابع. المترجم]

Lahssa هو من الآن فصاعداً الشخص نفسه الذي يراقب على شاشة ناسا Nasa كيف يكتشف الإنسان الآلي كوكب المريخ، أو ذلك الذي يفحص في برلين لوحة شجرة الساموراي للفنان المكسيكي غبرييل أوروزكو[٢] Gaberiel Orozco، أو هو أيضاً الإنسان الذي يراقب حركة الأسهم في صالة سوق الأوراق المالية في شنغهاي Shanghai.

إن المنجزات الحضارية الكبرى التي سمحت بانطلاقة الفكر والفعل – سواء كان ذلك في المجال الديني أو الفلسفي أو الأدبي أو العلمي – لهي مكونات ما يمكن أن نسميه الثقافة، التي هي، شأنها شأن العناصر الأربعة، عنصر حيوي للإنسان والعالم.

لقد سعينا إلى التذكير ببعض سمات حياة الأفكار المشار إليها، بتلك الحيوية الثقافية على اختلافها لنبرهن على فائدتها، بل ضرورتها في عالم معولم، يسيطر عليه اقتصاد السوق التنافسي الذي تتعالى فيه، وبشيء من العنف، أصوات كثيرة تطالب بحق الاختلاف.

ويمكن في واقع الأمر أن تتجلى بالتدريج أدلة كثيرة على ذلك في العلوم، وفي العصور التاريخية، وفي المجالات الثقافية. ويمكن لفهم الظواهر أن ينتظم حول عدد من مراكز الجذب التي تتنافس، ويخصب بعضها بعضاً في رحاب الفضاء نفسه.

وفي هذا السياق استطاعت بعض أهم النصوص المقدسة للإنسانية مثل الكتاب المقدس والقرآن والباجافاد جيتا[٣]: Bhagavad Gita، وأقوال بوذا Bouddha، ومحاورات كونفوشيوس Confucius، واعترافات القديس أوغسطين Saint - Augustin. ... إلخ. أن تصطنع تمثيلات وتصرفات لدى الأفراد والجماعات إبان قرون، ويمكنها اليوم أن تلقي الضوء على هذه الممارسة أو تلك، وأن تعطي أو تجدد العطاء لقدرات استباقية تنبئ بالمستقبل.

---

(٢) فنان مكسيكي معاصر، ولد عام ١٩٦٢م. ويركز في لوحاته على موضوع التراسل بين الأشياء. [المترجم]

(٣) ترجم إلى العربية بعنوان: الباجافاد جيتا – الكتاب الهندي المقدس، الذي حققه د. شاكوانتالا راوا شاستري، وصدر تحقيقها مع ترجمة إنجليزية عام ١٩٨٢م في بومباي – الهند، ترجمه إلى العربية د. رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط١، ١٩٩٣م. [المترجم]

إننا اليوم نتذكر لنفكر ونعمل ؛ ذلك هو منظور هذا الكتاب الذي نرمي من خلاله إلى بيان مدى إسهام الآخرين الذين سبقونا في تكوين أفكارنا، سواء ما كان منها حميمياً خالصاً، أو فردياً، أو ما كان منها جماعياً.

إن فعل القراءة الذي تشارك فيه كل الحواس – الرؤية، والسماع، واللمس، والتذوق، والإحساس، يعني أن نفهم الحياة فهماً أفضل، وأن نشارك فيها بحيويتها، وطاقتها، وتطوريتها التدريجية، مشاركة أفضل، إنه يعني أيضاً أن نفهم الموت فهماً أفضل، ونشارك في قوة البعث المرتبطة به. ويمكننا هنا أن نستوحي من عالِم ذي نزعة إنسانية عاش في عصر النهضة، إنه **نيكولا ميكافيللي**[٤] Nicolas Machiavel، عاشق معارف الماضي، الذي اهتم بأن يؤسس لزمنه الذي يعيشه فكراً سياسياً واقتصاديا قادراً على إلقاء الضوء على تحديد حدود الفعل الصائب. لكي يقرأ رجال الماضي يرتدي ميكافيللي في كل ليلة ثياب الاحتفال، إن علاقته بالقدماء هي علاقة وثيقة : [١٤]:

عندما يأتي المساء، أعود إلى المنزل. وألج مكتبي، ومنذ العتبة أخلع عني الثوب اليومي الرث الذي يغطيه الغبار والوحل لألبس ملابس البلاط الملكي والحبري ؛ وعندما أصبح بهذه الحلة المشرفة أدخل البلاطات العتيقة لرجال العصور القديمة. وهناك يستقبلونني بكل حفاوة، وأنا أتشهى بالغذاء الذي أفضله بامتياز، الغذاء الذي ولدت من أجله. هنا لا مجال للخجل من التحدث معهم، ومن سؤالهم عن مسوغات أفعالهم، وهم، الذين يغمرهم فضل الإنسانية، يجيبونني. وخلال أربع ساعات من الزمن لا يتسرب الملل إلى نفسي، أنسى كل ما يعصف بي، وأقلع عن خشية الفقر، بل إن الموت نفسه لم يعد يخيفني[٥].

---

(٤) نيكولا ميكافيللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧م) فيلسوف إيطالي من أسرة عريقة من أسر مدينة فلورنسا، وقد اشتهر بكتابه "الأمير". (المترجم)

(٥) الأعمال الكاملة، باريس، منشورات غاليمار، لابلياد، ١٩٥٢م، ص١٤٣٦.

إن مما تجدر ملاحظته هو أن هذه القراءة، هذه المقاربة الثقافية التي هي أقرب إلى أن تكون استكشافاً طقسياً وثقافياً لكل الكتب ولكل المؤلفين، تمارس مقرونة ببعض الخجل وباهتمام ينم عن الاحترام بعيداً عن سيل المعلومات اليومية والهموم المستمرة. إذنْ، إنها قراءة دنيوية ومقدسة في الوقت نفسه. إن من يخاطبهم ميكافيللي منفصلون عن الماضي الذي ينتمون إليه، إنهم ليسوا مجرد بقايا أثرية لزمن انقضى، إنهم يقبلون أن يتوجه إليهم بالسؤال شخص تتسم أسئلته بداهة بأن لها منظورات خاصة به سياسياً واقتصادياً.

وإذا كانت الإنسية الأوروبية منذ عصر النهضة أولت القراءة أهمية كبيرة فإن "طلاقة" القدماء الذين يقبلون على الدوام مخالطة الأحياء لا ينبغي أن تخفي ألبتة الواقعة الأساسية التالية: إن الكتب قادرة على زعزعة القناعات المكتسبة، وتحطيم أكثر الاعتقادات رسوخاً، والإجبار على تشكيك مرهق. وتلاحظ فيرجينيا وولف[٦] Virginia Woolf أن فعل القراءة يعني بمعنى من المعاني أن يفتح المرء بابه لعصبة من المتمردين الذين يندفعون مهاجمين عشرين موضعاً في آن معاً[٧].

إن ما نراهن عليه في هذا الكتاب يتمثل بالتحديد في تأكيد أن الكتب الأساسية في الثقافات العظيمة والأديان الرئيسية لديها رسالة مهمة ومؤثرة تنهيها إلينا بخصوص

---

(٦) إديلين فرجينيا وولف (١٨٨٢ – ١٩٤١م) روائية انجليزية، كاتبة مقالات، ناشرة، وكاتبة قصص قصيرة. تعد واحدة من أهم الرموز الأدبية المحدثة. إحدى رائدات مدرسة تيار الوعي التي شكلت ثورةً على السرد التقليديّ إبّان القرن التاسع عشر، بكلّ ما يحمله ذلك التيار من سمات حداثية مركبة مثل التداعي الحر للأفكار، المونولوج الداخلي، المنظور التعدديّ، وسواها من التيمات التي تزيد العملَ تركيبًا، إلا أن وولف تميزت بتقنيات سردية أخرى هي: الالتفات في الضمائر، أنسنة الجماد، تضفير الواقعيّ بالمُتخيّل، واختراق الأجرومية اللغوية، إضافة إلى الطول المفرط لجملتها السردية التي قد تصل إلى صفحات، ما يزيد أعمال وولف تركيبًا بنائيًا وصعوبةً في التلقي. من مقدمة كتاب ألِفر على الحائط، ترجمة وتقديم الشاعرة المصرية فاطمة ناعوت، مراجعة وتصدير د. محمد عناني، ط٢ المركز القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٠م. (المترجم)

(٧) رسالة لشاعر شاب، باريس، منشورات ألف ليلة وليلة، ١٩٩٨م، ص٢٧.

Lettre à un jeune poète, Paris, Ed. Mille et Une Nuits, 1998, p. 27.

أكثر المشكلات معاصرة. إنها تسمح بطرح مسألة الحياة، وبإلقاء الضوء على المفارقات والمتناقضات، وبفهم الفوارق الدقيقة، وبتفهم غموض الكائنات البشرية وأشكال سلوكها.

وبذلك يتضح أن حقيقة أن يكون هناك حد أدنى من ثقافة الشمول لدى كل فرد هو أمر غير طوباوي تماماً، وإنْ كان يوصف بأنه كذلك. وكما يقول محرر كبير في مجلة ليزيكو les Echos الاقتصادية الفرنسية، بمناسبة منتدى دافوس الأخير Davos فإن المطالبة بالحد الأدنى من الثقافة الشمولية في سياق "عالم يتحول من الغرب نحو الشرق"، باتت حاجة ماسة وحتمية في آن معاً.

لقد مضى زمن التساؤل عن تفوق هذا العرق أو ذاك، تلك الشخصية أو هذه. إن موضوع الساعة اليوم هو التفكير في مصداقية مبدأ إشاعة خطابات التسامح أو خطورته، المصداقية التي يمكن أن تبطل كل صيغ التفكير والفعل السابقة أو اللاحقة وتقود إلى الفوضى.

إن لكل إنسان الحق، وربما الواجب، في أن تكون له تفضيلاته الثقافية. لماذا لا يحب الإنسان، لكي يصنع عسله، وبعض مبادئه، دون كيشوت Don Quichotte لسرفانتس Cervantès والمحاولات Essais لمونتيني Montaigne كما يحب رواية طوطم الذئب le totem du loup للروائي الصيني جيانغ رونغ Jiang Rong أو رواية بيدرو بارامو Pedro Páramo لخوان رولفو[٨] Juan Rulfo؟ وما ذكرناه هنا ليس إلا أمثلة استقيناها من مجال الأدب.

إننا نزعم في هذا السياق أن هناك "مفاتيح ثقافية" ممكنة من أجل فهم أكثر عدلاً للعالم، وللمواقف في هذا العالم، ولدور الشركات فيه أيضاً. إن تلك المفاتيح الثقافية

(٨) روائي مكسيكي (١٩١٧ – ١٩٨٦م). الأب الروحي للواقعية السحرية في أدب أمريكا اللاتينية. أوحت روايته بيدرو بارامو لماركيز بروايته "مائة عام من العزلة". وأثرت في أدب أمريكا اللاتينية على وجه العموم. ترجم الرواية إلى العربية صالح علماني، دار المأمون المحدودة للنشر، ١٩٩٩م. المترجم

التي لن تكون مفاتيح انغلاق ومنع مخصصة لفتح الأبواب التي [١٥] تسمح بحركة ذهاب وإياب بين الآخرين والذات، وتسمح أيضاً برؤية الأشياء عبر رؤية الآخرين، وهي مفاتيح تحض على تغيير البيئة واللغة. إن الفهم الصحيح والترجمة أمران متداخلان. وإن التنوع في عالم معولم هو مرادف للحرية.

يتكون الباب الأول من الكتاب، الباب المعنون "العولمة المتنوعة" من ثلاثة فصول تبصّر في التشابك بين العولمة والتنوع. يشكك الفصل الأول في التعارض التقليدي بين الطبيعة والثقافة لإلقاء الضوء على تحديات إدارة عناصر الكون الأربعة والتنمية المستدامة: ويُظهر الفصل الثاني كيف أن طواف الأرض قاد عبْر التجارة إلى التشابك الصعب والضروري، تشابك يشكل في غالب الأحيان مفارقة بين العولمة والتنوع. ويتفحص الفصل الثالث بعض مظاهر الأخلاقيات الاقتصادية للثقافات الكبرى، والديانات الكبرى لكي نطرح طرحاً أفضل العلاقة الغريبة بين السوق والديمقراطية.

ويحمل الباب الثاني عنوان "التحديات النظرية والعملية في الوقت الحاضر"، ويتكون من تسعة فصول "موجزة"، مخصصة لبعض الموضوعات المقلقة التي تخص المعاصرة: الفوضى والتمييز بوصفه فصلاً ضرورياً بين السلطات والمصالح، الاستدامة، الخطر، الفقر، الفساد وضحاياه، مظاهر الغموض في توحيد صياغة حقوق الشعوب، ومفهوم الحرب العادلة، والتطابق، ومسألة توحيد صياغة القوانين، ومسألة القوانين الجزائية في فرنسا. لقد عالجنا بعمق هذه الموضوعات من خلال الأساطير والفلسفة، وألقينا الضوء على تحدياتها عبْر إشارات إلى الأحداث قريبة العهد.

أما الباب الثالث المعنون "منظورات" فإنه يتكون من فصلين مخصصين لتكوين آفاق أساسية. الأول مخصص لذلك الإحساس الأساسي لدى الإنسان، إنه الخوف، وهو إحساس يصل اليوم إلى حد الذروة لأسباب تاريخية وظرفية في إطار العولمة. وينصب الفصل الثاني على أهمية الإبداعية الفنية، وعلى تحدياتها بوصفها مرافقة للإنسان الذي يعيش في عالم معولم، وهو مجبر في الوقت نفسه على تحمل مسؤولية التنوع.

لقد رمينا من هذا الكتاب إلى عرض أدوات تحليل وعناصر تفكير هي في الوقت نفسه بسيطة وأصيلة، لا يمكن أن يستغني عنها كل أولئك الذين يودون التمهيد لمعالجة مسائل إستراتيجية ومسائل مبادلات، ويرغبون في فهم التبعات التي تتركها المعتقدات والتمثيلات في الحقل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والأخلاقي. لا يمكن للإدارة اليوم أن تُعرض عن المقاربة متعددة الثقافات، لأنها المقاربة الوحيدة القادرة على إلقاء الضوء بوضوح وإحكام على القرار والفعل في عالم معولم.

obeikandl.com